مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 3 / 16 /06/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

وقف الكتب والمكتبات وأثره في الحياة العلمية بالدولة الزيانية خلال القرنين (7-10هـ/13-16م)

The Waqf of books and libraries and its impact on the scientific life of the zayani state.

زينب لخضر* zineblakhdar z.lakhdarhistoire2008@gmail.com	الاقتصاد والمجتمع بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط	مخبر: الدراسات التاريخية والمتوسطية عبر العصور/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة علي لونيسي البليدة 02/ الجزائر.
د. مليكة حميدي Hamidi malika Hamidi.malika16@yahoo.fr	تاريخ وسيط	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة علي لونيسي البليدة 02/ الجزائر.

DOI : 10.46315/1714-010-003-033

الإرسال: 2020/06/03 **القبول**: 2020/07/09 **النشر**: 2021/06/16

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إماطة اللثام عن واقع الحركة العلمية والثقافية بالدولة الزيانية من خلال عملية وقف الكتب والمكتبات التي شكلت عبر التاريخ الإسلامي عاملا مهما في نشر وترسيخ العديد من القيم المعرفية، وأثرت بشكل ملموس في تقدم مناحي الحياة الفكرية بمختلف الدول الإسلامية، وذلك عبر التعريف بأهم المكتبات الوقفية الزيانية وطرق تسييرها، مع عرض مختلف الآليات والضوابط التي كانت تعتمد في إثبات تلك العمليات الوقفية، بالإضافة إلى تتبع دور مختلف طبقات المجتمع الزياني ومدى مساهمتهم في نظام وقف الكتب والمكتبات، معتمدين في ذلك على المنهج التاريخي العلمي الذي يستند على سرد الحقائق التاريخية وذكر مختلف المعلومات، بالإضافة إلى المنهج الوصفي المتعلق بوصف مختلف المكتبات وما تحويه من كتب ولوحات وقفية علقت على جدرانها لإثبات تلك الموارد الوقفية وإشهارها حفاظا عليها من العبث بها أو التطاول عليها.

وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى جملة من النتائج والتوصيات نذكر من بينها:

- أن نظام الوقف كان له دور كبير في ازدهار الحركة العلمية بالدولة الزيانية، حيث سهل من مهمة التعليم ومشقة البحث، كما أعطى فرصة للطلاب والعلماء للاطلاع على مختلف المصنفات ونسخ ما يحتاجونه منها وفق شروط و معايير وجب عليهم احترامها.
- أن تلك الخزائن الوقفية كانت مصدرا لنشر العلم والمعرفة ومنبرا لتنوير العقول، وأيضا مدرسة لتثقيف الفرد والمجتمع.
- إن انتشار تلك المكتبات والاهتمام بها راجع إلى العديد من المبادرات الفردية المتمثلة في طبقة السلاطين والفقهاء والعلماء اللذين كان لهم شغف كبير بجمع الكتب وحبهم للعلم وأهله.

كلمات مفتاحية: الدولة الزيانية، الوقف، الكتب، المكتبات، الحياة العلمية.

Abstract: This study aims to reveal the reality of the scientific and cultural movement in the Zayani state through the process of waqf of books and libraries, which throughout Islamic history have been an important factor in the dissemination and consolidation of many knowledge values, and have significantly influenced the progress of intellectual life in various Islamic countries, by introducing the most important libraries and methods of conducting

* - الباحث المُرسل: z.lakhdarhistoire2008@gmail.com

them, with the presentation of various mechanisms and controls that were adopted in establishing these waqf processes, in addition to follow the role of different layers of the Zayani society, and the extent of their contribution to the system of waqf books and libraries accredited, in addition to following the role of the various layers of the Zayani society in that regard. This is based on the historical scientific approach, which is based on the narrative of historical facts and the mention of various information, in addition to the descriptive approach concerning the description of the various libraries and the books and endowments that are hung on their walls to prove and declare these waqf resources in order to avoid tampering with them or to interfere with them.

Through this study, we have reached a number of findings and recommendations, including :

-The waqf system played a major role in the prosperity of the scientific movement in the Zayani state, where it facilitated the task of education and the hardship of research, and also gave an opportunity for students and scholars to view the various works and copy what they need edited according to the conditions and criteria they must respect.

-That these waqf vaults were a source of knowledge and a platform for enlightening minds, as well as a school for the education of the individual and society.

-The proliferation and interest of these libraries is due to many individual initiatives, such as the class of sultans, jurists and scholars, who have had a great passion for collecting books and their love for science and its people.

Keywords: Zayani State, Waqf, Books, Libraries, Scientific Life

-مقدمة:

يعد الوقف من الظواهر المجتمعية التي ساهمت بشكل فعال في ازدهار المجتمعات الإسلامية والنهوض بها، كونها نوعا من أنواع الصدقات التي شرعها الإسلام وندب إليها لفائدتها الكبيرة وانعكاساتها الإيجابية على الفرد والمجتمع، فإلى جانب دورها الكبير في المجال الاجتماعي والاقتصادي الذي لا يختلف عليه اثنان، فإن للوقف أهمية كبرى في تعزيز الحياة العلمية والفكرية وازدهارها، عبر مساهمته الفعالة في تشييد منابر التدريس ورعاية الأنشطة التعليمية ودعمها.

وانطلاقا مما سبق ذكره يمكن طرح الإشكالية الرئيسية التي يعالجها الموضوع:

ما مدى مساهمة وقف الكتب والمكتبات في النشاط العلمي والفكري بالمغرب الأوسط الزياني؟

وتندرج ضمن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات حول نظام الوقف على الكتب والمكتبات:

- فيما تمثل دور الحكام والسلاطين في النهوض بهذه العمليات الوقفية؟
- ما مدى مساهمة طبقات المجتمع في الوقف؟
- ما أنواع المكتبات الموقوفة؟ وفيما تمثلت القوانين والأنظمة المسيرة لها؟
- ما مصير هذه الكتب والمكتبات الوقفية في الوقت الحاضر؟

ومما لا شك فيه أن موضوع وقف الكتب والمكتبات رغم أهميته العلمية والتاريخية التي تكمن في استظهار مختلف التطورات الاجتماعية والمعرفية، إلا أنه للأسف لم يلق الكثير من الاهتمام والبحث من قبل الدارسين، خاصة فيما يتعلق بالفترة الزيانية، ولعل ذلك راجع إلى قلة

المادة العلمية التي تناولت الموضوع، حيث لم نقف إلا على القليل من الإشارات في كتب النوازل الفقهية والمصادر التاريخية، أو بعض الدراسات العامة مثل ما قدمه الباحث زاهي محمد في مقال بعنوان: "دور الوقف الحضاري في تلبية حاجات المجتمع العلمية والثقافية في الدولة الزيانية"، وكذلك ما كتبته الباحثة زينب رزيوي في المقال الموسوم بـ :"دور الأوقاف في النهضة العلمية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني"، وهي دراسات عامة تطرقت لنظام الوقف على المؤسسات التعليمية من مدارس ومساجد، وخصصت حيزا صغيرا للحديث عن وقف الكتب والمكتبات ولم تمدنا بنماذج عن تلك الخزائن ولا للكتب التي حُبست فيها.

أما عن حدود الدراسة فهي تشمل من الناحية المكانية بلاد المغرب الأوسط وتحديدا الدولة الزيانية بحدودها الجغرافية والسياسية التي لم تعرف استقرار كبيرا بسبب ظروفها السياسية والأخطار الخارجية التي كانت تهددها، ومن الناحية الزمنية فهي تشمل حوالي ثلاثة قرون(7-10ه/13-16م) عرفت خلالها الكثير من الأحداث والمتغيرات السياسية والثقافية التي انعكست بدورها على نظام الوقف، إيجابا وازدهارا في فترات السلم وسلبا وتدهورا أيام المجاعات والحروب.

1.تعريف الوقف:

1.1.لغة:

عند محققي اللغة العربية فإن الوقف يعني الحُبس(القادري، إ، ولمليح، س، 2013-2014م، ص47)والمنع، وهو مأخوذ من قولهم وقفت بمعنى حبست(الصلاحات، س، 2014م، ص 15)، ويرادفه التحبيس والتسبيل(الرملي، ش، 2002م، ص358)وجاءت لفظتا "وقف"و"حُبس" مترادفتين في أغلب التعاريف اللغوية وتؤديان معنى واحد(بوداود، ع، 2011م، ص39)، أمّا في لسان العرب(ابن منظور، أ، د.ت، ص359، 360)، فقد ذكر وقف الأرض على المساكين، وفي الصحاح للمساكين وقفاً: حبسَها، ووقفتُ الدابة والأرض وكل شيء أي سكتُّ، وتقول وقفت الشيء أقفه وقفاً، ولا يقال فيه أوقفت إلا على لغة رديئة.

2.1. اصطلاحا:

الوقف في الشريعة الإسلامية صدقة محرمة، لا تباع ولا تشترى ولا توهب ولا تورث، ويصرف ريعها إلى جهة من جهات البر(محمد، م، 1980م، ص 01)، فقد وردت تعريفات عدة للوقف منها حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة، أي حبس الأصل وتسبيل الثمرة ومعناه حبس المال وصرف منافعه في سبيل الله(عليوان، أ، 2006م، ص 95).

واختلف الفقهاء في بيان معنى الوقف في الاصطلاح الشرعي، إذ عرفوه بتعاريف مختلفة تبعا لاختلاف مذاهبهم في الوقف من حيث لزومه وعدم لزومه، واشتراط القربة به، والجهة المالكة للعين بعد وقفها، وغير ذلك من الأمور(مصبح، م، 2013م، ص17).

2. المكتبات الوقفية بالدولة الزيانية:

لقد أدى وقف الكتب والمخطوطات بكل أنواعها وفي مختلف المجالات إلى ظهور خزائن الكتب في الزوايا والمساجد والمدارس وحتى في قصور السلاطين ومنازل العلماء، حيث سارع المقتدرون والمحسنون لتشييد الكثير منها ووضعها في خدمة طلبة العلم، إذ حبسوا عليها الأموال وزودوها بكل التجهيزات، سعيا من وراء ذلك إلى التقدم العلمي(فرحات، ك، 2017م، ص 205).

وقد بلغ من انتشار المكتبات أن أبا حيان النحوي(ت: 745ه) كان يعيب على مشتري الكتب ويقول له:«الله يرزقك عقلا تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف» (ساعاتي، ي، 1996م، ص 33)، وهذا دليل واضح على كثرة المكتبات والكتب الموقوفة عليها في مختلف المجالات.

وقد وُجد نوعان من المكتبات الوقفية، منها المكتبات العامة والخاصة، فالعامة منها تشيد وفق بناءات خاصة وأحيانا تلحق مباشرة بالمساجد والمدارس الكبرى.أمّا المكتبات الخاصة فهي تحتوي على حجرات متعددة تربط بينها أروقة واسعة، بها كتب موضوعة على رفوف مثبتة بالجدران مع تخصيص كل غرفة لفرع من فروع العلم، وتوجد به أروقة للطلبة المطالعين، وأيضا غرف خاصة بالنسخ وأخرى للمشيخة والمناظرات العلمية(فرحات، ك، 2017م، ص 205، 206)، وقد اتخذت هذه المكتبات أسماء مختلفة منها:"خزانة الكتب"، "بيت الكتب"، "دار الكتب"، "دار العلم"، "بيت الحكمة "وغيرها من الأسماء(فرحات، ك، 2017م، ص 205).

و يبدو مما سبق أن السلاطين الزيانيين ساهموا في تشييد المكتبات بنوعيها سواء الخاصة الموجودة في قصورهم أو العامة المتواجدة بمختلف المؤسسات التعليمية، وقاموا بجلب مختلف المصنفات من بقاع العالم الإسلامي، كما شجعوا على التأليف والنسخ.

2. 1.المكتبات والخزائن السلطانية:

وجدت هذه الخزائن في القصور السلطانية وفي المؤسسات التعليمية، حيث أنها كانت مرفقا أساسيا يقوم السلاطين بإعمارها ويشاركهم في ذلك المحسنون بهباتهم وأحباسهم، وكانت هذه الخزائن من أعظم المكتبات بحكم إنشائها من قبل السلاطين، وتشتمل على نسخ من القرآن الكريم ومجموعة من الكتب مثل السنة والسيرة الشريفة والتفسير والتاريخ والوعظ والكثير من كتب الفقه والتصوف، وبذلك وفرت هذه القصور وما تحويه من مجالس علمية فرصة للطلاب للإطلاع عليها(قريان، ع، 2011م، ص 133، 134).

كما وجد بالمسجد الأعظم بتلمسان مكتبتان عامتان، وكانت كلتاهما تحتويان على أنفس الكتب، فالمكتبة التي شيدها السلطان أبو حمو موسى الثاني كانت على يمين المحراب من الجدار القبلي(عبدلي، ل، 2011م، ص 538)بجانب الجامع الكبير أسسها عام(760ه)(أمبارك، ب،

2017م، ص131)، وعرف هذا السلطان بحبه لجمع الكتب(عبد اللاوي، ي، 2016م، ص 92)، ويصف لنا الباحث بوخالفة عزي(2011م، ص 242)، اللوحة التي نقشت عليها الكتابة المتضمنة للوقف بقوله:« وفي الجامع الكبير بين المحراب والمكان المعين كقبر ليغمراسن، ينتصب باب صغير مقوس يؤدي إلى قاعة قليلة الإضاءة، وتشاهد في أعلى الباب لوحة من الأرز مدمجة في الجدار نقش عليها بحروف بارزة وخط أندلسي جميل كتابة تضمنت وقف مكتبة:طول اللوحة متران ونصف متر على ارتفاع خمسة وثلاثين سنتيمترا، وكان هذا المعلم المنقوش مجهولا تغطيه طبقة جصية سميكة منذ أمد بعيد...».

وكانت هذه المكتبة تزخر بالكتب المختلفة في جميع العلوم والفنون(هادي، ج، 2015م، ص 160)، ومن خلال الزيارة الميدانية التي قمنا بها إلى المسجد الأعظم بتلمسان لم نعثر على هذه المكتبة، وبعد الاستفسار عنها من قبل القائم على شؤون المسجد ذكر لنا بأنه لا يوجد أثر للمكتبة ولا للكتب التي كانت موقوفة عليها، ولم يبق سوى أثر اللوحة المنقوشة عليها كتابة تبين تاريخ الانتهاء من إنشاء تلك المكتبة و ممن قام بتشييدها(أنظر الملحق رقم 01).

والمكتبة الثانية شُيدت من طرف السلطان أبي زيان محمد الثاني، حوالي سنة (796هـ /1394م)، ووجدت هذه المكتبة بالقسم الأمامي من المسجد الأعظم، واحتوت - زيادة على الكتب والمخطوطات - نسخا من القرآن الكريم، ونسخة من صحيح البخاري ونسخة من كتاب الشفاء للقاضي عياض، نسخهما السلطان أبي زيان بنفسه وحبسهما على المكتبة العامة بالمسجد الأعظم(عبدلي، ل، 2011م، ص 539)، بالإضافة إلى كتاب من تأليفه عنونه بـ"الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة" في التصوف(رزيوي، ز، 2016م، ص132)، ومجموعة من القصائد التي نظمها، وذكر لنا ذلك التنسي بقوله:« وكذا قصائده التي على أظهر أجزاء البخاري المحبس بخزانته يقال أنها من نظمه ويقال مما نظم على لسانه»(التنسي، م، 2011م، ص220)، هذا إضافة إلى الأوقاف التي حبسها على هذه المكتبة للقيام بعملها على أكمل وجه وصيانتها، حتى تواصل نشاطاتها الفكرية والتعليمية(بوشقيف، م، 2010- 2011م، ص70)، غير أنه للأسف لم يبق في وقتنا الحالي أي أثر لهذه المكتبة ولا الكتب التي حبست فيها، فقد طمست معالمها واندثرت.

وهذا الحرص الشديد من قبل سلاطين بني زيان، وإقبالهم على إنشاء مثل هذه المكتبات الضخمة يشكل معلما من معالم سياسة الدولة في الاهتمام بالعلوم وتقريبها للدارسين، كما يؤكد على محاولة الدولة في استغلال المجال العلمي، للاستعانة به في تدبير أمور السياسة (قريان ع، 2011م، ص 133)، وهذا ما دونه السلطان أبي حمو موسى الثاني(2011م، ص91، 93)في كتابه:"واسطة السلوك في سياسة الملوك"، بحيث نجده ينصح ولي عهده"أبي تاشفين"للاهتمام

بالعلماء وتقريبهم إلى مجالسه والاستعانة بهم في تدبير أمور الدولة بقوله:« يا بني، وأما فقهاؤك فلتتخير لنفسك فقيها عالما نبيها موسوما بالصلاح، سالكا طرق الرشاد والفلاح، يرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمور ويأمر بالسداد، ليبين لك ما أشكل عليك من الأحكام، وما تأتيه من الحلال وتدعه من الحرام، وما تقف عنده من الأمور الشرعية، التي هي قوام الملك والرعية...»، ويستنتج من هذا الكلام أن السلاطين الزيانيين كانوا يستعينون بالعلماء والفقهاء في عدة أمور خاصة المتعلقة بالسياسة وتسيير الحكم.

2. 2. مكتبات العلماء وميسوري الحال:

لم يقتصر أمر إنشاء المكتبات ووقفها في سبيل الله على السلاطين والوزراء بل تعداهم إلى العلماء والميسورين(أبو زيد، أ، 1996م، ص 337)، ومن أمثلة ذلك ما ذكرته بعض كتب التاريخ بأنه تم العثور على مكتبة أخرى بمدن المغرب الأوسط في العهد الزياني، وهي مكتبة للشيخ إبراهيم التازي(ت: 866هـ-1462م)التي وجدت بزاويته في وهران و ضمت العديد من الكتب العلمية، لكن أغلب المصادر سكتت عن هذه المكتبة رغم أهميتها ولم تقدم لنا معلومات غزيرة حولها وانكبت جل اهتمامات الباحثين والمؤرخين حول السيرة الشخصية والعلمية للشيخ إبراهيم التازي.

كما وردت إشارة عابرة لتلك المكتبة في كتاب"النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب"(ابن صعد، ت، ص 35، 37)، أثناء حديثه عن زاوية الشيخ إبراهيم التازي بقوله:« ومن أعظم الدلائل على ولايته الباهرة وكرامته الظاهرة ما اجراه الحق سبحانه على يديه من بناء الزاوية البديعة المتعددة الأبواب والمساجد الأنيقة العالية والمرافق المعدة للزوّار وأبناء السبيل... ومدارسها المشتملة...الأنيقة...والخزائن المملوءة بالكتب العلمية»، ولعل اهتمام الشيخ بتشييده لتلك المكتبة هو عنايته بالعلم وأهله، فقد كان يحب العلماء ويكرمهم.

وبفضل تنشيط السلاطين الزيانيين للعلم وذويه وللشعراء والأدب، وبفضل ما أوقفه أهل البر والإحسان من الأرزاق الجارية، وقع الإقبال على طلب العلم وازدهرت الحركة الفكرية والثقافية بتلمسان الزيانية(عبدلي، ل، 2011م، ص 539).

3. أنظمة وقوانين المكتبات الوقفية:

اسْتُعْمِلَتْ المكتبات كوسيلة لنشر العلم وتوسيع آفاق المعرفة والبحث لدى الطلبة والعلماء، وكان يقوم بخدماتها عمال لحمايتها من الضياع والخراب، وتقريبها ممن يرغب في الدراسة أو البحث وفق قوانين وأنظمة(قربان، ع، 2011م، ص 139)، وقد ذُكِرت عدة أسماء للمشرف على المكتبة منها:"صاحب المصاحف"، "صاحب الخزانة"، "الخازن"، "الوكيل"، "القيم"، "المشرف" "والأمين"، كما عين إلى جانب المشرف الأعلى على المكتبة مساعدون منهم المناول، أمّا القيم على

أمور المكتبة فكان يختار من فئة العلماء المتضلعين في اللغة والأدب(فيلالي، ع، 2002م، ص 361).

وقد وضعت عدة قوانين من أجل السير الحسن لهذه المكتبات والتي استمدت من شروط الواقفين، ففي الغالب كان يتم الإقبال عليها طوال النهار، وبعد التفرغ من الدراسة مساء ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب(عمارة، ف، 2009- 2010م، ص 72)، ومن بين هذه القوانين عدم إخراج الكتب خارج المدرسة أو المسجد(فيلالي، ع، 2002م، ص 350)، ويجب على الطالب أن يستعير كتاب واحدا(أسكان، ح، 2004م، ص 85).

وفي هذا الشأن، أورد الونشريسي(1981م، ص 293)في معياره نازلة كان قد أجاب عليها الشيخ أحمد القباب(ت: 779هـ)، تخص الكتب المحبسة، هل ينتفع بها حسبما نص عليه المُحبس أم لا؟ فكان جوابه : « إن نص على بعضها كقوله مثلا: على القراءة والمطالعة، فليس لأحد أن ينسخ منها إلا أن يقول وغير ذلك من وجوه الانتفاع...»، والجواب على هذه النازلة كان واضحا، والأمر تعلق باحترام شرط المحبس إذا دون ضمن شروط الوقف النسخ فتنسخ الكتب، وإذا اشترط أن تكون الكتب المُوقوفة للمطالعة فقط، فيجب احترام ذلك.

أمّا الإعارة فكانت متفاوتة بين الواقفين، فكان بعضهم يضع شروطا لتنظيم استعارة الكتب المُحبسة، وبعضهم كان يشترط في وثيقة وقفه ألا يعطي لطالب العلم المستعير إلا كتابا واحدا فقط، وعند إعادته يمكن إعارته كتابا آخر، وبذلك تأرجحت الإعارة الخارجية بين الإباحة والمنع حسب الظروف كندرة الكتاب أو وفرة النسخ، وسمعة الطالب المستعير ومكانته الاجتماعية والعلمية، فمن المكتبات من قيدتها برهن خاص خوفا من ضياع الكتب، ومنها من سمحت دون مقابل أو شرط، باعتبار أن عائد الفائدة العلمية على القارئ لا تقدر بمال(ربوح، ع، 2011-2012م، ص 274).

وقد جرت العادة أن يستعير الأدباء بعضهم من بعض، وكان بعضهم ضنينا بكتبه ولاسيما الأصول منها فلا يعيرها، وإذا ألح عليه عالم أو طالب في طلب الإعارة ينسخ له الكتاب المطلوب، ويعطيه نسخة منه لا الأصل، فحين وجد علماء آخرون عرفوا بكرمهم وسخائهم في إعارة الكتب ولاسيما لطلاب العلم(حامد، ش، 1998م، ص 132).

أمّا فيما يخص أصول الكتب - في الغالب الأعم- لم يكن مسموحا بإعارتها خارجيا لأنها نسخة وحيدة، كما يجب على المستعير أن يلتزم بعدة مبادئ منها، المحافظة على الكتاب وعدم العبث به سواء بالمحو أو الكشط، ولا يجوز له أن يكتب شيئا في بياض فاتحة الكتاب أو خاتمته، ولا يعيره لغيره، كما لا يقدمه كضمان لشيء، و أن لا يحتفظ به أكثر من شهرين(حامد، ش، 1998م، ص132، 133)، غير أن جل الشروط التي وضعها الواقفون للحفاظ على محتويات المكتبات لم

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

تحترم دائما، خاصة ما تعلق بخزانات المدارس، فقد كان المعلمون يخرجون منها الكتب لأنفسهم ولغيرهم، الأمر الذي تسبب في إهمال وضياع الكثير منها(أسكان، ح، 2004م، ص 85).

4. وقف الكتب وطرق إثباتها:

تجلت عناية أهل المغرب الأوسط في نشر العلم بوقف الكتب منذ القرن (7هـ/13م)، وكان هدف السلاطين من وقفهم للكتب هو تشجيعهم للعلم، فبالإضافة إلى تشييد المدارس والمساجد التي أكثروا الأوقاف عليها من الأملاك العقارية ليضمنوا لها دخلا قارا؛كانوا يحبسون عليها المصاحف والكتب المتنوعة لتكون تحت تصرف الطلبة والأساتذة، وللسلاطين الزيانيين باع طويل في وقف الكتب في الخزانات والمكتبات الموجودة في جميع المؤسسات الدينية، وعلى الكتاتيب حتى يستفيد منها الأولاد الضعفاء والمساكين(كروم، ع، وفيلالي، ع، 2016م، ص98، 100)، وهذا ما يبدو لنا سياسة رشيدة طبقت في تعميم نشر العلم في أوساط المجتمع وتحقيق العدالة الاجتماعية.

1.4. نسخ الكتب:

لقد تنافس الخطاطون والفقهاء والطلبة وحتى بعض السلاطين الزيانيين على نسخ المصاحف والكتب، الأمر الذي أدى إلى تطور فن النسخ والوراقة بتلمسان الزيانية(شرخي ن، 2009-2010م، ص 48)، وكان السلطان أبي الحسن (737هـ/1337م)ينسخ مصاحف القرآن بيده (فلاق م، 2011م، ص64)، ويتضح لنا مما سبق أن القرآن الكريم استحوذ على اهتمام الواقفين (ساعاتي، ي، 1996م، ص64)، كما حث السلطان أبي زيان محمد الثاني (796 – 801 هـ / 1394-1399م) العلماء على التأليف و نسخ الكتب(بن ذيب، ع، وآخ، 2007م، ص150)، فقد نسخ بيده نسخة من صحيح البخاري والمصحف الشريف وكتاب الشفا للقاضي عياض ووقفهم بمكتبة الجامع الأعظم(فيلالي، ع، 2002م، ص 337).

وكانت أمنية الفقهاء والخطاطين أن يتقربوا إلى الله بنسخ المصاحف ووقفها، فكان أبي عبد الله محمد الأكبر ابن مرزوق(ت: 842هـ)، يشتغل بالقراءة وعلوم القرآن، وكان مصحفيا أي يكتب المصاحف(فيلالي، ع، 2002م، ص337)، كما شمل الوقف نسخ من المخطوطات في علوم شتى، وكذلك الإنفاق على العاملين بمختلف المؤسسات التعليمية(جير، ز، وآخ، 2016م، ص 491)، فكانت المطالعة حرة، والأوراق والحبر بالمجان لمن أراد استنساخ أي كتاب موجود بالمكتبة (سليم، هـ، 2004م، ص 140).

ومن عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد حتى يتمكن طلاب العلم من الإطلاع عليها وكذا لضمان حفظها(محمود، ز، 2012م، ص 41)، كما وجد نوع آخر من الوقف، تمثل في وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم أو على ورثته(ساعاتي، ي، 1996م، ص 33)، من ذلك ما

أوصى به الفقيه أبي عبد الله بن مرزوق التلمساني(ت:781هـ /1383م)، بوقف كتبه (زاهي، م، 2017م، ص68)على أولاده، ونقل لنا تلك الوصية صاحب كتاب"التراتيب الإدارية"(الكتاني، م، د.ت، ص 321)بقوله:« إن جميع ما احتوت عليه غرفتي التي لم أفارقها إلا منذ ثلاثة أيام وما احتوى عليه مسكني الآن، من دواوين الكتب والمفردات والكراريس وسائر التآليف، وما هو معار عند الناس حسبما ذلك مقيد في أزمتي مُحبّس على من يتعاطى العلم وعرف بالاشتغال به من ذريتي، من أي جهة كانوا فينتفعون بمطالعة ما يحتاجون إليه منها، إلا أن أولادي الذكور وأولادهم أولى بالتقديم عند ازدحام حاجتهم إلى ما يطالع منها، كما إن الأولى فالأولى الأعلى فالأعلى من أولادي الذكور أولى عند ذلك أيضا، وإن متولي النظر في كتبي المذكورة الأقرب فالأقرب والأعلم الأدين، فإن لم يجتمع الوصفان فالأدين ثم الأعلم، ثم الأقرب مع أمانتهما عليها، فإن لم يؤمنا فالأمين كيف كان».

ويرى الباحث عبيد بوداد(2011م، ص117)في ذلك، أن أسرة المرازقة أسرة علمية، اشتهرت بعلمائها الكبار، لذلك قدّر هذا العالم أن المنفعة أولى في أسرته، ووضع في ذلك شروطا للاستعارة، وحصر المستفيدين من أبنائه في الأشخاص الذين عرفوا بحبهم للعلم والاشتغال به.

وكان لأبي عبد الله محمد بن مرزوق دكان بالقيصرية(الوزان، ف، 1983م، ص242)، بتلمسان يبيع فيه السلع وينسخ فيه المصاحف، وكان جده الخطيب ابن مرزوق عندما يعود إلى بيته يقوم بالقراءة ونسخ المصاحف والكتب الدينية، و كان خطه رائق وأتقن الخطين المغربي والمشرقي، ولهذا السبب استدعاه السلطان أبي الحسن لكتابة تحبيسات بالخط المشرقي بمشاركة العديد من الخطاطين، الذين ظهروا في الدولة الزيانية؛وكان من بينهم الأديب الوادي آشي الأندلسي(ت: 749هـ)، الذي رحل إلى تلمسان بعد سقوط غرناطة، وأصبح من كبار النساخين بها، حيث نسخ بخطه قرابة مائة كتاب بتلمسان، كما نسخ بمدينة فاس نحو ثمانمائة سفر، واشتهر الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن اللحام بجودة الخط، واهتم أيضا الشيخ ابن الحسيني بنسخ المصاحف وزخرفتها، وكذلك اشتهر العلامة محمد السنوسي بهذه الصنعة، فكتب نحو ثلاثين كتابا بخطه كلفه بها أحد شيوخه، وغيرهم من الخطاطين التلمسانيين الذين عملوا على توفير الكتاب في المكتبات العامة والخاصة(فيلالي، ع، 2002م، ص 337، 338).

2.4.طرق إثبات الوقف:

واستخدمت عدة طرق لإثبات الوقف والتعرف عليه، ويتجلى ذلك من خلال كتابة نص الوقف على الكتاب نفسه(ساعاتي، ي، 1996م، ص131)، أما الطريقة الثانية فتتمثل في كتابة وثيقة وقف شاملة، تبين فيها الحدود والأهداف العامة، وتسجل أمام القضاء الشرعي، والطريقة الثالثة اعتمدت على ختم صفحة العنوان وصفحات أخرى بخاتم يحمل اسم الواقف أو اسم

المكان الذي جعلت فيه، حيث أن الأختام تختلف في شكلها وحجمها، وفي بعض الأحيان نجد هذه الأختام تحتوي على اسم المُحبس والمكان وبعض الشروط وتاريخ الحُبس، والشيء المؤكد أن هذه النصوص الوقفية المدونة على الكتب أو الأختام كان يقصد منها إشهار الوقف، حفاظا على الكتب من العبث بها أو بيعها(ساعاتي، ي، 1996م، ص 141، 143)، فكل سوء تصرف في تدبير أموال الوقف أو محاولة إنفاقها في غير محلها وأهدافها العلمية، يؤثر سلبا على المستوى الفكري والتحصيل العلمي(القادري ولمليح، 2013- 2014م، ص 62).

5.نماذج عن الكتب الموقوفة:

أكثر فقهاء وعلماء الدولة الزيانية من التأليف في المجال الديني على وجه العموم والمجال الفقهي خصوصا وألفوا عددا كبيرا من المصادر التي اعتمد عليها الطلبة في أبحاثهم والفقهاء في فتاويهم(فيلالي، ع، 2002م، ص448، 449)، لكن السؤال المطروح هل تلك الكتب التي صنفت في مختلف المجالات تعتبر كلها كتب موقوفة؟

لم تذكر لنا المصادر التاريخية عناوين محددة حبست على خزائن المكتبات باستثناء بعض الكتب والمخطوطات التي ذكرت أنفا في سياق الحديث عن المكتبات العامة والخاصة، والأمر الذي جعلنا نصنف هذه الكتب على أنها كتب وقفيه من خلال اعتمادنا على بعض الدلائل، منها أن السلاطين الزيانيين شجعوا على التأليف والنسخ حيث نجد بعض الكتب ألفت بطلب من السلطان وهذا ما أشار إليه العديد من المؤرخين والعلماء سواء في فاتحة كتبهم أو في ختامها، ونظرا للكم الهائل من المؤلفات التي وجدت في تلك الفترة، عمل حكامها وعلمائها وبعض من فئات العامة الميسورة الحال على تأسيس خزائن لتلك الكتب سواء في المدارس أو الزوايا والمساجد.

وبحكم المسجد كمبنى في الشريعة الإسلامية، أنه بمجرد بنائه والصلاة فيه يصبح ملك للجميع، فقد اتفق العلماء في وقف المساجد أنها من باب الإسقاط والعتق لا ملك لأحد فيها، وأن المساجد لله تعالى(مرابط، ل، 2015 -2016م، ص 39)، وبالتالي أغلب الكتب التي وجدت بها هي كتب موقوفة، كما قام بعض العلماء بتصنيف وشرح العديد من المختصرات بالإضافة إلى نسخهم للعديد من الكتب ووضعها في الخزانات العامة، لينالوا الأجر والمثوبة من عند الله عزوجل، ويستفيد منها طلابهم في دروسهم و أبحاثهم العلمية.

ومن بين تلك الكتب نذكر "شرح لمختصر أبي الحاجب في الفروع" الذي قام به العالم أبي زيد عبد الرحمان بن الإمام(ت:743هـ/1343م)، كما حرر الشيخ أحمد بن حجلة التلمساني (ت:776هـ/1374م) ما يزيد عن ثمانين كتابا في الحديث والفقه والأدب، أمّا ابن مرزوق الحفيد فقد صنف أكثر من ثلاثين مؤلفا في شتى الفنون والعلوم منها "المنزع النبيل في شرح مختصر خليل"(فيلالي، ع، 2002م، ص 448، 449).

ويذكر لنا الشيخ ابن صعد التلمساني(د.ت، ص 23)أنه وقف على الكثير مما كتبه العالم إبراهيم التازي في الفقه والأصول وعلم الحديث، والحال نفسه للعالم الوادي آشي الذي ذكره المقري التلمساني(1942م، ص 308) في كتابه أزهار الرياض بقوله:«وكان رحمه الله كثير النسخ والتقييد، آية الله في ذلك، حتى إني رأيت في خزائن أهل تلمسان بخطه نحو المئة سفر وكان يحترف النسخ».

ومن بين الكتب التي صنفت في فترة حكم بني زيان أيضا، كتاب لأبي زكريا يحي بن خلدون المعنون بـ "بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد"، وكتاب"المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" لصاحبه أبي عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالخطيب، وكتاب "المجموع" ويسمى "الديوان" لنفس المؤلف، وكتاب"زهرة البستان في دولة بني زيان" لمؤلف مجهول عاش في كنف الدولة الزيانية وعاصر السلطان أبي حمو موسى الثاني، ولم يبق من هذا الكتاب إلا السفر الثاني، أما السفر الأول فهو في حكم المفقود(فيلالي، ع، 2002م، ص467، 468)كما لم يقتصر تأليف الكتب على العلماء والفقهاء بل شمل أيضا الحكام والسلاطين؛نذكر من بينهم السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي ألف كتابا بعنوان"واسطة السلوك في سياسة الملوك"، الذي ضمنه وصايا رشيدة وسياسة علمية تتعلق بنظام الملك والرعية(فيلالي، ع، 2002م، ص 451).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، ما هو مصير هذه المصنفات في وقتنا الحالي؟فمن المصنفات ما حقق ويعتبر مصدر مهم لتدوين الأحداث والوقائع التي مر بها المغرب الأوسط في ظل حكم الزيانيين وبعضها في حكم المفقود، والبعض الآخر على رفوف خزائن العالم الإسلامي وحتى الأوروبي كمخطوطات لم تحقق بعد أو في طور التحقيق.

- خاتمة:

نستنتج من خلال هذه الدراسة:

- أن نظام الوقف كان ولا يزال السند والمعين لمختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهذا ما جعل العديد من الدول تهتم به وتعمل على إحيائه وتنظيمه، فهو نظام خيري شيدت بفضله العديد من المؤسسات التعليمية وخزائن الكتب، وبفضله زودت بمختلف الوسائل واللوازم الضرورية.

- وضع الواقفون والقائمون على تلك الخزائن الوقفية عدة قوانين وأنظمة حددت طريقة الإعارة وفق الأمور الإدارية للمكتبة، كما وقف العديد من المحسنين الأراضي الزراعية والبساتين وغيرها من الدور والحوانيت لتعود فائدتها على خزائن الكتب والمؤسسات التعليمية.

- ويبدو أن موضوع وقف الكتب والمكتبات في الدولة الزيانية، لا يزال مجالا مفتوحا للبحث من قبل المؤرخين والباحثين، لأن معظم الدراسات منصبة على التاريخ العام سواء سياسيا أو عسكريا أو اجتماعيا أو ثقافيا للدولة الزيانية، أكثر من الغوص في الدراسات المتخصصة والدقيقة.

- والجدير بالذكر أنه لا يزال التواصل الحضاري مستمر وروح وقف الكتب والمكتبات متواصلا في أجيال أبناء المغرب الأوسط -الجزائر حاليا- بحيث يسجل العديد من عملية وقف المصاحف والكتب للصالح العام من طرف العلماء والأساتذة في حياتهم، وبعد وفاتهم يتبرع أبناؤهم بمكتباتهم وبما تزخر به من إرث علمي ابتغاء في نيل الأجر والثواب الحسن في الدار الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم:«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (القشيري، م، 1998م، ص342).

- قائمة المصادروالمراجع:

أ. المصادر:

.الوزان الفاسي حسن بن محمد، (1983م)، *وصف إفريقيا*، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

.الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، (1981م)، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب*، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

.أبو حمو موسى الثاني، (2011م)، *واسطة السلوك في سياسة الملوك*، الجزائر: منشورات بونة للدراسات والبحوث.

.الكتاني محمد عبدالحي، (د.ت)، *نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية*، بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.

.ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، (د.ت)، *لسان العرب*، بيروت: دار صادر.

.المقري التلمساني شهاب الدين، (1942م)، *أزهار الرياض في أخبار عياض*، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

.ابن صعدالتلمساني، (بلا تاريخ)، *النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب*، تاريخ الاسترداد 17 أفريل، 2020، من ، (Archive.org/details/al-nadjm Al-thakib.full/mode/2up).

.القشيري مسلم بن الحجاج، (1998م)، *مختصر صحيح مسلم*، بيروت: دار الكتب العلمية.

.التنسي محمد بن عبدالله، (2011م)، *تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)*، الجزائر: موفم للنشر.

ب- المراجع:

.أمبارك بشير، (2017م)، دور الأوقاف في التكافل الاجتماعي خلال العصر الوسيط -الأوقاف الزيانية بالمغرب الأوسط نموذجا- مجلة تاريخ المغرب العربي.

.أسكان الحسين، (2004م)، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط(1-9هـ/7-15م)، الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

.بوداودعبيد، (2011م)، الوقف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.

.بوشقيف محمد، (2010- 2011م)، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(14-15م)، تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد.

.بوخالفة، ع، (وآخ). (2011م)، شواهد الإحسان على مآثر المحروسة تلمسان، د.م: د.ن.

.جير ، ز، (وآخ).(2016م)، دور الوقف الراهن في نشاطات التعليم بالجزائر، مجلة الناصرية.

. هادي جلول، (2015م)، دور المكتبات في نشر العلوم في تلمسان في العهد الزياني، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية.

.زاهي محمد، (ديسمبر، 2017م)، دور الوقف الحضاري في تلبية حاجات المجتمع العلمية والثقافية في الدولة الزيانية، مجلة الحوار المتوسطي.

- أبو زيد أحمد، (1996م)، فضل الأوقاف في بناء الحضارة الإسلامية، مجلة التاريخ العربي.

.حامد الشافعي دياب، (1998م)، الكتب والمكتبات في الأندلس، القاهرة: دار قباء للنشر والتوزيع.

.محمد محمد أمين، (1980م)، الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر648-923هـ/1250-1517م (دراسة تاريخية وثائقية)، القاهرة: دار النهضة العربية.

.محمود زناتي أنور، (جويلية، 2012م)، الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية ودوره في النهضة العلمية (الأندلس نموذجا)، دورية كان التاريخية.

.مصبح معتزمحمد، (2013م)، دور الوقف الخيري في التنمية الاقتصادية (دراسة تطبيقية لقطاع غزة)، د.م: د.ن.

.مرابط ليلى، (2015 -2016م)، الكتابات الوقفية بالمغرب الأوسط من القرن السابع إلى الثالث عشر الهجريين/ القرن الثالث عشر إلى التاسع عشر الميلاديين - دراسة تاريخية أثرية- الجزائر: جامعة أبو القاسم سعد الله.

.ساعاتي يحي محمود، (1996م)، من كتاب الوقف وبنية المكتبة العربية (استبطان للموروث الثقافي)، الرياض: د.ن.

.سليم هاني منصور، (2004م)، الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، د.م: مؤسسة الرسالة للنشر.

.عبد اللاوي يوسف، (ديسمبر، 2016م)، وقف المكتبات في المؤسسات الجامعية" مكتبة الشيخ البخاري عوينات بمعهد العلوم الإسلامية بالوادي نموذجا"، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية، جامعة الوادي.

.عبدلي لخضر، (2011م)، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، الجزائر: دار ابن النديم.

.عبيد حياة، (جوان، 2017م)، آليات تفعيل وقف الكتب والمكتبات على الجامعات الجزائرية وأثرها العلمي، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية.

.عمارة فاطمةالزهراء، (2009- 2010م)، المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنين (8-9هـ/14-15م)، وهران: قسم الحضارة الإسلامية.

.فيلالي عبدالعزيز، (2002م)، تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، د.م: موفم للنشر والتوزيع.

.فلاق محمد، (2011م)، المشهد العلمي والثقافي في زواوة و تلمسان في القرنين السابع والثامن، الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.

.فرحات الكاملة، (2017م)، مظاهر الوقف العلمي في الحضارةالإسلامية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات.

.الصلاحات سامي محمد، (2014م)، الوقف بين الأصالة والمعاصرة(دراسات متخصصة في رصيد العمل الوقفي المؤسسي)، بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون.

.القادري، إ، لمليح، س، (2013- 2014م)، الوقف العلمي بالمغرب الأقصى ودوره في تأسيس المدارس خلال القرن8هـ-14م (أوقاف مدينة فاس نموذجا)، مجلة عصور الجديدة.

. قريان عبدالجليل، (2011م)، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، الجزائر: جسور للنشر والتوزيع .

.كروم عيسى وفيلالي عبد العزيز، (2016م)، أحباس الكتب المخطوطة في المغرب الأوسط مواصفاتها وأشكال الإنتفاع بها (7-10هـ/ 13-16م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية.

.ربوح عبدالقادر، (2011- 2012م)، دور الأوقاف في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة(92-898هـ/711-1492م دراسة من خلال النوازل الفقهية)، الجزائر: قسم التاريخ.

.رزيوي زينب، (ديسمبر، 2016م)، دور الأوقاف في النهضة العلمية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني(633-962هـ/1235-1555م)، دورية كان التاريخية.

.الرملي شمس الدين محمد، (2002م)، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، بيروت: دار الكتب العلمية.

.شرخي نبيل، (2009- 2010م)، دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(14 و15م)، الجزائر: المدرسة العليا للأساتذة.

. بن ذيب، ع، (وآخ)، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، الجزائر: دار القصبة للنشر.

ملحق01:

صورة توضيحية للوحة المنقوشة التي كتبت عليها البيانات المتعلقة بتاريخ تشييد المكتبة الوقفية واسم السلطان الذي أمر بذلك.

من تصوير الباحثة بتاريخ2019.04.12 بالجامع الأعظم بتلمسان.